إلى صاحب العيال

إعداد

القسم العلمي بدار ابن خزيمة

مصدر هذه المادة :





بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. وبعد:

إليك يا صاحب العيال كلمات مبشرات تبدي لك مخبوء نعيم الله عليك.. وما أسبغه عليك من الفضائل والمنح العظيمة .. إذ رزقك ذرية يزين بها عيشك.. وينشرح بها صدرك .. ويكثر بها نسلك .. ويزداد بها في الآخرة أجرك!

أراك وقد أثقلك همُّ الكسب! وأعياك عبء التربية .. وأجهدك همُّ المسؤولية .. في أعظم جهاد.. وأفضل عبادة! فلا تحزن! فتلك سنة الحياة .. عليها طبعت .. وبها فطرت .. لكنها لمن فقه شرع الله فيها تحلو وتطيب .. ولمن جانب شرعه تصتك وتخيب.

يا صاحب العيال أبشر بالفضل!

لا يحزن على هموم عياله إلا من خالطت همة الرجولة قلبه.. وفي ذلك يستوي العبد والحر، والمؤمن والكافر، إلا أن المؤمن الصادق يتعبد الله بتلك الهموم ويلتمس فيها الأجر والمثوبة من عنده؛ لأنه يعلم أن الله قد استرعاه على العيال.. وفصل له في ذلك المقال، فقال على لسان نبيه محمد ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالرجل راع في أهل بيته ، وهو مسؤول عن**

رعيته». [متفق عليه].

ثم وعده بالأجر العظيم.. والفضل الكبير على الإنفاق ورعاية الأولاد؛ فعن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « **إنك مهما أنفقت على أهلك من نفقة فإنك تؤجر ، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك** ». [جزء من حديث رواه البخاري].

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: «مَرَّ على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا: يارسول الله لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ : «**إن كان خرج يسعى على أولاده صغارا فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان**». [صحيح الجامع ٢/٨].

وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله في إحدى غزواته فقال لإخوانه: «تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟ قالوا: ما نعلم ذلك. قال: أنا أعلم. قالوا: فما هو؟ قال: رجل متعفف ذو عائلة ، قام من الليل، فنظر إلى صبيانه نياماً منكشفين فسترهم وغَطَّاهم بثوبه؛ فعمله أفضل مما نحن فيه». [إحياء علوم الدين ٤/ ٧٠١].

فأبشر – أخي – بجنة من رسول الله ﷺ وعدها مادمت في جهاد التربية.. تحمل أعباءه .. وتصابر عناءه.. وتكابد ضرّاءه.

إذا ضاق بك الأمر .. فانظر إلى ما أعده الله لك من الفضل.. ستشعر حينها بفيض من الصبر يغمر قلبك .. ويمسح حزنك..

ويثبت أقدامك على ثغر التربية.

إذا كان المتصدقون يتصدقون مرة في سنة.. أو مرة في شهر .. فأنت – بتربية العيال – صاحب صدقة دائمة .. بمالك .. ونفسك .. ورحمتك.. وأبوتك.

فعن المقدام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة**». [صحيح ابن ماجه رقم: ١٧٣٩].

لا تحزن.. وانظر كيف أنعم الله عليك مرتين:

الأولى: إذ رزقك عيالًا لم يرزقهم غيرك.. وتفضَّل عليك بالذرية وحرم غيرك.. وامتنَّ عليك بالولد وحَرَمَ غيرك .. تأمل كيف امتن على رسله بذلك فقال: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**﴾[الرعد: ٣٨]، وامتن على عباده عامة بالبنين في آيات كثيرة.. وجعل من الدعوات الصالحات سؤاله سبحانه الأزواج والذرية فقال: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ**﴾[الفرقان: ٧٤].

فنعمة الولد.. نعمة عظيمة.. واجبها الحمد والشكر .. والقيام بما تقتضيه من الجهاد!

فهذه نعمة واحدة .. فوائدها لا تحصى.. وفي مثلها جاء قول الله جل وعلا: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾.

الثانية: إذ جعل قيامك على الأبناء وجهادك في تربيتهم وتنشئتهم بابا في أبواب الخير عليك في الآخرة.. يغفر به ذنبك .. ويربو به أجرك.

والبنات .. أجرهن عظيم

بالرغم مما جاء به الإسلام من تحريم وأد البنات .. ووجوب الإحسان إليهن .. فلا تزال وجوه من إنجاب البنات تتمعر .. وأخرى تتكدر .. وثالثة تتنكر .. كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ**﴾. قال الألوسي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «والآية ظاهرة في ذم من يحزن إذا بشر بالأنثى؛ حيث أخبرت أن ذلك فعل الكفرة ، وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال في قوله سبحانه: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ** ...﴾ الآية: هذا صنيع مشركي العرب ، أخبركم الله تعالى بخبثه؛ فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له، وقضاء الله تعالى خير من المرء لنفسه، ولعمري لا ندري أيٌّ خير؟ لربَّ جارية خير لأهلها من غلام، وإنما أخبركم الله عز وجل بصنيعهم لتجتنبوه، ولتنتبهوا عنه، وكان أحدهم يغذو كلبه ويئد ابنته». [رواح المعاني ١٤/١٦٩].

ومن أصابه من إنجاب البنات .. حزنٌ .. لم يفقه! فإن واهب الذكور والبنات هو الله سبحانه .. كما قال تعالى: ﴿**يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾

قال العلماء : قدَّم الله جل وعلا ذكر الأنثى على الذكر ليمنها .. فبدأ بذكرها في الآية قبل الذكر.

فيا صاحب البنات .. لا تحزن وأبشر .. فإن لك بهن أجوراً .. ما أظنك تظفر بها إلا بهن! فعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان له ثلاث من بنات فصبر عليهن ، وأطعمهن ، وسقاهن وكساهن من جَدَّتِهِ** – يعني ماله – **كن له حجابا من النار**». [صحيح الجامع: ٣٤/٥]، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان له ثلاث بنات يؤويهن ، ويرحمهن ، ويكفلهن، وجبت له الجنة البتة**». قيل : يا رسول الله، فإن كانتا اثنتين؟ قال: «**وإن كانتا اثنتين؟**» قال: فرأى بعض القوم أن لو قالوا له: واحدة؟ لقال: واحدة ». [رواه أحمد].

قال محمد بن سليمان : البنون نعم.. والبنات حسنات.. والله عز وجل يحاسب على النعم.. ويجازي على الحسنات».

ويحكى عن معاوية قال: «ما مرَّض المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الزمان ولا أذهب جيش الأحزان مثلُهن، وإنك لواجد خالًا قد نفعه بنو أخته، وأبًا قد رفعه نسل بنته».

أخي: فتأمل في هذا الثواب العظيم.. وانظر بعين عقلك إلى هبة الله لك.. إذ رزقك ما يَرْفَعُ عنده قَدْرَكَ .. ويُعْلِي شَأْنَك .. وإياك إياك .. من وساوس الشيطان .. وهواجسه ونفثاته.. فإنما يوسوس ليحزنك.. ويغفلك عما أنت فيه من النعيم..

كيف تسعد بالولد؟

أخي الكريم.. تذكر أن الله سبحانه حينما أنعم عليك بالولد.. فقد أنعم عليك بباب عظيم من أبواب السعادة.

فهم مفتاح الرزق: كما قال سبحانه: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾**، فعطف الله رزقهم في هذه الآية على رزق آبائهم؛ ليعلم كل أب أن الله يرزق ولده كما يرزقه هو؛ لأن الله جل وعلا قد تَكَفَّلَ برزق سائر خلقه كل على حدة فقال: **﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾**. [هود: ٦].

لكنه سبحانه قال في آية آخرى: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾**؛ فأثبت هنا رزقهم وعطف عليه رزق آبائهم؛ ليعلم كل أب أن ما يناله من الرزق فهو بفضل ما رزقه الله من الولد .. وأنهم مفاتيح الأرزاق، وهذا كله من بلاغة القرآن.

فلا تحزن أخي لرزق عيالك؛ فلستَ مَنْ يرزقُهم .. كما أنك لست مَنْ خَلَقَهم؛ بل تفاءل بهم خيراً فربما كانوا لك بابا من أبواب الغنى العاجل أم الآجل.. عش معهم يومًا بيومٍ حامدًا ... شاكرًا .. منعمًا ببسماتهم.. ووجودهم .. متعبدًا بالجهاد في رعايتهم بما تستطيعه من مال وجهد ورعاية.

لا تقل: من أين لي رزقهم غداً؟ وكيف لي بسكنهم بعد عام؟ ومن لهم إذا كبرت؟ وكيف يكونون إذا هاجرت؟ بل كن ابن يومك .. وارسم بالتفاؤل مستقبلهم .. **﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ**

بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، وهم حسناتك بعد الموت إذا أحسنت تربيتهم فكانوا صالحين مؤمنين.. ففي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**». فدعوات ابنك الصالح تصلك في قبرك.. فينال خيرها.. ويعطيك برها.. ولو اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء ساعتها ما استطاعوا.

وهنا يشتد مسيس الحاجة إلى حسن التربية والتوجيه .. والنصح والإرشاد .. إذ تكثير النسل ليس مقصودًا لذاته؛ وإنما يقصد منه مع تكثيره صلاح الأولاد واستقامتهم وتنشئتهم، ليكونوا صالحين مصلحين في أمتهم، وقرةَ عينٍ لوالديهم وذِكْرًا طيبًا لهما بعد وفاتهما، وهذا لا يأتي إلا بتربية الأبناء على الإيمان والهدى.. وتجنيبهم طرق الغي والردى.. وحثهم على الخير وتنشئتهم عليه.

فكثيرة هي أحزان أصحاب العيال.. وكثيرة همومهم بسبب انحراف الأبناء.. وخروجهم عن الطريق السوي.. وقد يكون السبب كله سوء التربية في الصغر .. وإهمال النصح والتوجيه.

فصابر أخي نفسك في دلالة أبنائك وأهلك على الخير ... فإن لك في ذلك زيادة أجر؛ كما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ دَلَّ على هدى كان له من الأجر مِثْلُ أجر صاحبه لا ينقص من أجورهم شيئا**». [رواه مسلم]، واحذر أن تكون لهم قدوة سيئة؛ فإنك بذلك تُضَيِّقُ على نفسك الطريق ... وتُوَرِّثُ لها الأحزان.. لا تجدها إلا بعد الكِبَرِ!

كن لهم أبا وناصحاً.. وموجهًا وصاحبًا.. ومرشدًا ومعلمـــاً.. وابذر فيهم بذور الخير لتجني منهم المسرات والسعادة في المستقبل.

